

الصمت المنعقد، وتحسس بيديه عن يمين وشمال، فلما لم يرَ شيئاً، ولم يسمع شيئاً، ولم ينكر شيئاً؛ أنكر نفسه كلها، ونهض من مضجعه متثاقلاً، فجعل يمشي في غرفته على غير هدى، حتى انتهى إلى نافذة من نوافذ الغرفة ففتحتها، وكان ذلك إذناً لضوء القمر في أن ينسلَّ في هذه الغرفة، ولكنه لم ينسلَّ، وإنما اندفع إلى الغرفة اندفاعاً أضاء له كل ما في الغرفة من فضاء ومن أثاث. هنالك أدار الملك بصره في الغرفة فلم ينكر من أمرها شيئاً، ثم أشرف من النافذة فاستنشق الهواء الطلق، ومد بصره في الفضاء العريض المنبسط أمامه، فلم يرَ إلا هذه الأشجار الباسقة الشاهقة في السماء، وقد لبست من ضوء القمر أردية نقية ناصعة، وامتدت غصونها تضطرب في الهواء اضطراباً خفيفاً، كأنها ترغَّب في النوم هذه الطير التي أوت إليها حين ولى النهار، وكأن هذه الطير قد سكنت إلى حركاتها الخفيفة المنتظمة فنامت مطمئنة وادعة، لولا أحلام خفيفة خفية كانت تمر بنفوسها الضئيلة الوادعة، فتبعث من أفواها أصواتاً قصيرة حلوة، وتبعث في أجنحتها خفقات يسيرة لا تكاد تبدأ حتى تنقطع، وقد أطل شهر يار وقوفه أمام هذه النافذة ماداً بصره في هذا الفضاء العريض، وماداً سمعه في هذا الصمت الجاثم عليه، وممتعاً نفسه بهذا الضوء الرقيق الذي يترقرق بينهما، وبهذه الأصوات الرشيقة التي تبلغه من حين إلى حين، حتى إذا ثاب إليه الهدوء، وامتلاً قلبه سكينه، وأنست نفسه أمناً ودعة تراجع متثاقلاً، ولكنه لم يذهب إلى مضجعه، وإنما ذهب إلى مجلس من مجالسه في الغرفة، فترامى عليه متهاكاً، وقد أزمع أن ينتظر مطلع الصباح يقظان؛ فقد كره مضجعه، وكره النوم، وكره هذا الطائف الذي أخذ يزججه منذ الليلة.

ولكنه لم يكاد يطمئن في مجلسه حتى غاب عن نفسه، أو غابت عنه نفسه، وكان النوم كان ينتظره خلف هذا المجلس، فلم يكد يستقر فيه حتى مد إليه ذراعيه فطوق بهما عنقه في رافة ورحمة وحنان، وإذا هو مغرق في رقاد عميق لذيذ لا يدري الملك أطل أم قصر، ولكنه أفاق مذعوراً للمرة الثالثة، فمد بصره ومد سمعه، ثم لم يلبث أن ضرب إحدى يديه بالأخرى، ففتح الباب، وأسرع الحرس وفي أيديهم المصابيح، قال الملك: «هل أنكرتم شيئاً؟» قال قائد الحرس: «لم ننكر شيئاً يا مولاي.» قال الملك في صوت فاتر متكسر: «هذا غريب! إنني لمؤرق منذ الليلة.»

ثم نهض ومضى متثاقلاً حتى خرج من غرفته والحرس يتقدمونه ويتبعونه، وهو يسعى هادئاً لا يقول شيئاً ولا يلتفت إلى شيء، حتى بلغ ذلك الجناح من القصر حيث كانت غرفات الملكة، فمضى أمامه وعاد حراسه إلى أماكنهم، وانتهى شهر يار إلى غرفة